رواية" الحكاية الأخيرة"(1)

الرؤية الحضارية وبنية السرد

عبد الحميد بن عبد الله

المغرب

يقوم المتن الحكائي الموضوع للدراسة على بنية غير معقدة، "فالحكاية" تنكشف فيها عبر متتاليات حكائية بسيطة، وهي تقدم عالما، أو عوالم تحكمها علاقات اجتماعية وعاطفية مما نعيشه أو تعودنا عليه، وتتصارع خلالها قيم سياسية، وأخلاقية...، فيتفاعل الوجداني مع الوجودي، والروحي مع المادي، وتزاحم ضرورة الفن والجمال ضرورة الوجود والبقاء. يمتد هذا العمل عبر مائة وثمان وتسعين صفحة، ولكن عبر حُبكة غير بسيطة، فيها من التداخل والتكسير، والاستباق، والاسترجاع، وتشييد إستراتيجية الحكي على التجريب والتعدد ما به اكتسبت الرواية جماليتها، وحازت فاعليتها، وبلاغتها الإمتاعية.

يمكن تتبع الحكاية، حسب متنها الحكائي، عبر ثلاث متتاليات حكائية كبرى:

1-مرحلة "فيصل" القاضي في إمارة "ميسان"، وعاصمتها ذات النجدين، زمن الأمير العادل "أشرف".

2-مرحلة "فيصل" في مدينة " عفراء" التي أسسها في أعماق الصحراء، بعدما خرج ثائرا متمردا، زمن الأمير "المغير" الطائش المستبد.

3-مرحلة ما بعد اغتيال " فيصل"، إلى بداية زوال " عفراء"، ونهاية الحكاية السابعة التي كان يقدمها الحكواتي " شاهد".

لعل البداية المنطقية للأحداث نجدها في الصفحة الخامسة والثلاثين حيث يبدأ سرد وصفي ذو طابع تأريخي جغرافي بنـــَفـــَس حكائي "...كانت بمنطقة الشمال إمارة تـــُـــدْعَى

"ميسان" تتصل حدودها الممتدة في جزء كبير منها بالبحر، وفي جزء مماثل منها بصحراء كبرى...". في هذا الفضاء نشأت أهم شخصية روائية في النص، شخصية " القاضي فيصل" الذي تأثر منذ صغره بشخصية حكيم معلم يدعى "دارية"، كان يعَلمُ الناس في حلقته التعليمية بالسوق كيف يتوصلون إلى حقائق الحياة بأسلوب استدلالي بسيط، وخاصة ما يتعلق منها بمواضيع أنواع الحكم، وأكثرها موافقة للعدل والشرعية، مما يذكر بـــ "الأغورا" عند اليونان مع سقراط. يصير "فيصل" قاضيا مشهورا، عادلا، جريئا،، زاهدا في الدنيا، في عهد حاكم الإمارة، العادل، الحازم، الأمير "أشرف" الذي انشغل بإقامة أركان دولته عن مراقبة أبنائه: " المغير"وـــلي العهد الذي نشـــأ طائشا متجبرا، و"حسام" ثم " غادة" التي ستكون سببا في وفاة أبيها.

خلال ذلك كانت قد توطدت علاقة القاضي "فيصل" بأحد صلحاء القوم، وشرفائهم، وكبير تجارهم المدعو" أبا الفضل"(2)؛ كان القاضي قد أوكل إليه أمر تربية " شاهد " وتبنيه(3) وهو طفل يتيم، سيكون له شأن فيما يأتي من الحكاية بفضل ذكائه، وحسن خلقه، وعشقه للعلم والحكي. هو الفارس الخفي الذي تسبب في قيام عفراء(4) وهو شخصية "الحكواتي" الذي سينتهي جوَّاب آفاق، يروي حكاياته السبع، وسابعـــتها هي التي يشير إليها عنوان الرواية.

بعد موت الأمير تولى ابنه "المغير"، فعاث في البلاد فسادا، وقرر سحق كل معارضيه، وكان في مقدمتهم القاضي"فيصل". كوَّنَ لذلك جيشا قويا، جند فيه أقوى الشباب وأمهرهم، ومن الصدف أن كان من ضمنهم الشاب "شاهد" الذي اختير ضمن فرقة خاصة تتكفل بالمهام الصعبة، جمعته الصحبة والألفة، وعدم الرضى على صنيع الأمير المتجبر بشاب نبيل يدعى"عمادا". تم إشعار القاضي بما يخطط له "المغير" من أمر اغتياله، فدبر صديقه " أبو الفضل" أمر تهريبه وتمويله، ليضرب في الصحراء بمعية أصحابه وأنصاره، وينشئ إمارته الجديدة(5) "عفراء" في بلدة توافرت لها كثير من عوامل التطور والتقدم، ما جعل أمرها يؤرق "المغير" في "ميسان"، فقرر بعث جيش لسحقها. فكان أن تزعم كل من "شاهد" و"عماد" عملية تمرد وهم على مشارف "عفراء"، ثم انضما إلى القاضي "فيصل" مما أضعف الجيش، وعرضه للتدمير.

استقبل القاضي فيصل "شاهدا" استقبال الأبطال، إذ استضافه في بيته، وعرفه على أهله بمن فيهم ابنته المتميزة الجميلة "عابرة"(6). تنشأ علاقة حب بينهما، غير أنها لم تدم طويلا، إذ قرر " شاهد" إنهاءها فجأة، وغادر المدينة سرا رفقة صاحبه "عماد"، لا لشيء سوى لأن نفسه لم تخلق لتلك العلاقات، وإنما كانت منذورة للتجوال، وجوب الآفاق، والتفرغ للعلم والحكي.

يدبر "المغير" أمر اغتيال الوالي العادل "فيصل" عن طريق طبيب يدعى "سحنون "، استطاع دخول إمارة "عفراء "والتقرب من القاضي، وكسب ثقته، إلى أن سممه، وهرب مع رفيقيه "ورد" و"هيثم"، وسيوجد هو أيضا مقتولا على مشارف "ميسان". تموت "عابرة" بعد ذلك بقليل.....

تبدأ المرحلة الثالثة من الحكاية/الرواية، إذ يصير "عماد" تاجرا يجوب البلدان بقافلته، يلتقي في إحدى رحلاته بـ "شاهد"صدفة، وقد أصبح حكواتيا، ونعلم مما أفضى به لصديقه "عماد" أنه كان بصدد إتمام مشروعه الفني المتمثل في إبداع سبع حكايات، سيطوف البلدان معرفا بها، وسيكون أهل "عفراء" بصفة خاصة على موعد معه، كل فصل ربيع، على مدى سبع سنوات، لسماع حكاية واحدة تتكون من سبعة فصول، خلال سبعة أيام كل سنة. كان الأمر كذلك، إذ زارهم ست مرات، وأمتعهم بست حكايات من دون أن يعلموا أنه ذلك الشاب الجندي الذي تمرد على جيش "المغير" وكان سببا في انتصار "عفراء"، ولم يكتشفوا ذلك إلا عبر "عماد" الذي زار إمارتهم، بقافلته التجارية، بعد ثلاثة عقود(7) من مغادرتها صحبة "شاهد"(8). انتظر أهل "عفراء" الحكواتي من أجل الحكاية الأخيرة بين أمل ويأس. دار الزمان دورته، وتغيرت أحوال "عفراء"، أجدبت بعد إرباع، وجفت بعد إمطار، هجرها كثير من أهلها (9) وتأخر الحكواتي عن موعده... ولكنه جاءهم بعد أن تقوس ظهره، وابيضت لحيته، ليلتقي ما تبقى من الحكواتي مع ما تبقى من "عفراء"، يروي فصول" الحكاية الأخيرة" السابعة، ثم يغادر مع طلوع فجر اليوم السابع. أما "المغير" حاكم "ميسان" المستبد فقد دار عليه الزمان، كما دار على "دارا" وقاتله، فقد انقلب عليه" الواصل" أحد قادة جيشه، من أبناء عمومته.

يستفاد من المتن الحكائي الذي تم عرضه أن الكاتب لم يكن معنيا بأي انتماء مكاني أو زماني محدد لعالمه المتخيل، إذ لم يتحققّ ذلك عبر أمكنة جغرافية واقعية معلومة، ولا مؤشرات زمنية محددة. كل ما هنالك، هو أسماء ذات أصل عربي، وعناصر حضارية قديمة، كوسائل النقل (الدواب)، في مسالك صحراوية، لعل الكاتب إذن لم يكن معنيا بإعطاء سند واقعي، أو تاريخي محدد لروايته، مما يمكن أن تكشفه خرائط البلدان أو تجليه تواريخ الأزمان. لقد ارتفعت الرواية عن أي واقع موضوعي غير واقعها المتخيل لتشبه " الحكاية". لقد احتفل الكاتب في "الحكاية الأخيرة" بـــ "النظام الداخلي"إلى الحد الذي جعل "النظام الخارجي" يبدو باهتا، بل يكاد يغيب، وهذا في تقديري اختيار جمالي له مبرراته التي تعود إلى الكاتب وحده، فهو الذي يحدد المقادير، على أساس أن تبقى الرواية كما يقال استعارة مغلقة على ذاتها، ولو أنها استندت إلى العالم الخارجي. هذا يسمح لنا بأن نصنف هذا العمل على مستوى التجنيس في إطار الرواية/ الحكاية.

معالم "رؤية العالم" أو " الرؤية الحضارية" في الرواية

إذن بعد هذا، فما الذي تريد هذه الرواية/الحكاية قوله؟ بل ما الذي يمكن أن تقوله؟

من الراجح أن هذا العمل ينطوي على مقصدية معينة تنأى به عن كل عبثية، وتسلكه في إطار العمل الإبداعي الفني الهادف الذي يروم أن يكون ذا فاعلية اجتماعية، وقيمية بانية، لا تقول قولها عما هو كائن بالضرورة، وإنما تقوله عما هو ممكن.

لقد قام عالم "الحكاية الأخيرة" الروائي على شخوص، وعلاقات، ومصالح، وقيم... يمكننا أن نستشف من خلالها "رؤية للعالم" ذات أبعاد اجتماعية، وأخلاقية، وسياسية، وفكرية بعضها عبرت عنه شخصيات الرواية، وبعضها تبناه السارد على الرغم من أنه حاول أن يكون محايدا ومنفصلا عن مآلات عوالمه، تاركا ما سماه باختين "تعدد الأصوات" يتكفل بتفاعل مختلف الإيديولوجيات، وتصارعها.

لكن المتخيل مهما حاول أن يكون مفارقا للواقع، ستظل هناك أسباب تصله به، ولعل أهم إشارة في النص تشير إلى تفاعل مختلف تمظهرات الوعي وأشكاله داخل "حكاية عفراء" مع وعي الكاتب هي ما نجده في الصفحتين حيث يقول الكاتب:

" اجتاحتني رغبة في استراحة، وضعت القلم، أشعلت سيجارة، ثم أنشأت أنظر إلى جليسي المنهك في قراءة الجريدة، قبل أن أنبهه بسؤال:

-ماذا تقرأ، يا راوية؟

-أخبارا.

-وما الأخبار؟

-مسخ...

كان رده يلخص فعلا ما يكتسح أحوال العالم من حولنا من بشاعة مثيرة للاشمئزاز فقلت:

-صحيح."

إذا عدنا إلى الحكاية، سنجد أن المعادل التخييلي لما يراه الكاتب/ السارد أو "راوية" تعكسه بنية القلق واللااستقرار والتنافر كما نرصدها من خلال العلاقات بين الشخوص، والمظاهر الآتية:

-علاقة "أشرف" بولديه : الطاغي المستهتر، واللامبالي.

-علاقة الأمير "المغير" المستبد بقومه.

-علاقة المتمردين بنظام "المغير"، والثورة عليه والخروج عنه.

-نهاية علاقة "عابرة" بـــــ" شاهد".

-مظاهر الاغتيال، والقتل، والتصفية...

-نشأة عفراء ودمارها.

-الانقلاب على " المغير " نفسه من قبل ابن عمه "الواصل"، " زوج أخته"، هاتك عرضها، قبل ذلك، والمتسبب في موت والدهما كمدا.

تعكس هذه البنية العنيفة، المتوترة، المتنافرة الأطراف صراع "قيم" واضحا، وانتصارا للظلم. فإذا وجدنا الحكمة والعدل، والرجولة والعلم، والعمران والإخلاص، والصدق والتضحية لدى كل من "أشرف"، و"فيصل"، و"أبي الفضل"، و"عماد"، و"شاهد"، و"عابرة"، و"دارية"؛

فإننا نجد في المقابل الظلم، والتسلط، والاغتيال، والتدمير لدى" المغير"، و"بلبل"، و"سحنون"، و"الواصل" ومن يدور في فلكهم.

وعلى الرغم من أن النص– أي نص– هو بنية مستقلة بدلالتها، ورؤيتها، فإنه يظل متماسا مع غيره من النصوص، والبنيات الذهنية، والجمالية بقوة فاعلية " التناص " أو "المثاقفة" أو فاعلية التلقي المتعدد والمتنوع، وأحيانا بفعل اندراج العمل في رؤية "ثقافية إبداعية" للمبدع نفسه، حيث يتحقق التراكم، والتواصل أكثر مما يتحقق الاختلاف، والتدابر. لذلك يمكن للدارس أن يلتفت إلى العلاقة الممكنة بين المنجز المسرحي الدرامي لدى عبد الحفيظ مديوني، ورديفه الروائي التخييلي في "الحكاية الأخيرة" بل و لم لا، بينهما وبين منجزه التشكيلي أيضا من حيث الرؤية الاجتماعية، ومن حيث القيم الثابتة المهيمنة إنسانيا، وجماليا؟ قد لا نجد صعوبة في الإمساك بالخيط الرابط بين تلك الأعمال/ المشاريع، إن هناك مؤشرات تنبئ عما وراء أعمال الرجل من ملامح رؤية لا تني تتأسس، وتنمو، وتتوطد مهما تغيرت المعالم الجمالية، واختلفت الأشكال التعبيرية. دون أن يعني ذلك أن الكاتب كان يكرر ذاته، أو ينسخ /قوله، بعرضه في مِعْرض مختلف بعض الاختلاف، وتقديمه في لبوس مغاير بعض المغايرة فقط.

يحضر في مسرحية "الورشة" (10) موضوع "الاستبداد" في شخص المخرج المتسلط، حيث يربط المؤلف، حسب الدكتور مصطفى رمضاني(11)، المتخيل بالواقع، ليعالج بعض التناقضات التي يعج بها الواقع في ظل مؤسسات غير ديموقراطية، فتعكس المسرحية صراعا جدليا ساخنا بين قوتين: قوة الظلم (السي علال)، وقوة البحث عن النور والتحرر (بوجلود وفرقته)(12)." يبقى في نهاية المطاف الشر شرا، ويبقى الخير خيرا، مهما تعددت وجوههما" (13).

أما مسرحية "رحلة سند وباد"(14) فتعالج تجربة إنسانية عامة ومشتركة، وقيمة كونية أبدية، إنها قيمة " الأنانية" وما يدور في فلكها من قيم الإقصاء، وحب التملك، والهيمنة، والسيطرة، والابتلاع إلى حدود دمار الإنسانية(15). إن هناك فعلا "رؤية للعالم" تتأكد، وتفرض نفسها.(16) ولكن إلام انتهت عوالم " الحكاية الأخيرة"؟ لقد هيمنت على الحكاية أربع أزمات كبرى :

1–أزمة وجودية أنطولوجية، مع الموت، ومع الزمن الذي جار على مدينة " عفراء " وأهلها(17) (190–191،197).

2–أزمة وجدانية عاطفية، جارت على " عابرة" في علاقتها مع " شاهد ".

3–أزمة سياسية اجتماعية، رأينا فصولها بين "المغير" ومن معه في "ميسان" ضد "فيصل" وأتباعه في " عفراء.

4–أزمة أخلاقية قيمية أثرت على الأمير "أشرف " بين " غادة " و القائد "واصل".

انتهى ذلك كله إلى ما لا يراد، ولا يتمنى إذ :

- يموت الأمير "أشرف " العادل و يبقى ولداه : الطاغية و اللامبالي.
- يقف القاضي " فيصل " مع الحق ضد الظلم والجور ثم يموت مسموما.
- تنشأ علاقة حب مزهرة في صحراء وبيداء مهلكة، فتنتهي دون سابق إنذار وتموت الحبيبة كمدا.
- يدعم " أبو الفضل "الحق، وينتصر للفضيلة كاسمه، ثم ينتهي مسجونا فمقتولا.
- يناصر "دارية" الحكيم العجوز الحق وقيم الثورة، فيغتال.
- تنشأ مدينة " عفراء " مدينة فاضلة، بديلا لكل قيم الفساد، ورمزا لكل قيم العمران والحياة، وتنتهي مدمرة، خرابا يبابا.

يبدو الكاتب أحيانا كأنه ليس هو من يملك الإجابة عن مصائر شخوصه، ونهايات عوالمه، وإنما شروط الحياة في العالم المتخيل هي التي تقتضي ذلك، هي ما يحدد درجات الوعي، ويتحكم في ميزان العلاقة بين وعي كائن، ووعي ممكن، نعم، لعل هناك حتمية تخضع لها الحياة في عوالم الإبداع، وهناك أقدارا يجهلها المبدع نفسه، أقدارا تتشكل وتنكتب في مناطق الظل، وفي سهو، وغفلة من الكاتب، فتفضي بالشخصيات إلى مصائرها...يقول السارد : "لقد عز علي أن أساير شاهدا فيما اندفع إليه من تضحية بأغلى ما تهيأ له في عفراء من حب...لكن الأمر لم يكن بيدي حتى أقرر مكانه أو أحدد مصيره، ولا أدري إن كان راوية سيكون له الانطباع نفسه، أو كان سيتفق مع شاهد، ويرى أن لجريان الأحداث حتميته التي لا محيد عنها."(18).

إن الرؤية إلى العالم في الرواية تنبثق من خلال ما كان بين شخوصها من صراعات، وما اختلف بينهم من مصالح، وعواطف، وما كان بدواخلهم من أشواق، إنها رؤية لا تتحدد من خلال الصراع الاجتماعي وحده، ولا من خلال الصراع السياسي على السلطة فقط، أو صراع القيم، بل إنها كل ذلك، أو شيء قريب منه.

وبالجملة نقول إن الرؤية إلى العالم ترتد إلى ما تمثل عبر فصول الرواية من صراع، وتدافع بين قيم العدل والحكمة، وإرادة العمران، والحب، والمعرفة... مقابل قيم الظلم، والاغتيال، والتسلط، والفساد والإفساد إلى حدود التحالف مع الشيطان(19). هذا كما أن أغلب القوى الفاعلة الممثلة للقيم الإيجابية البانية أراد لها منطق الرواية أن تنهزم قتلا، واغتيالا، أو بفعل جريان أقدار قوية ضدهم، فعوادي الدهر وصروفه جرى أغلبها ضد ما تمثله " عفراء "، وما كان يؤمل منها كمدينة فاضلة، بديلة لـــ " ميسان ".

يمكننا القول إذن، إن الرواية يمكن نعتها برواية " النهايات الفاجعة "، وذاك ما دفع "راوية" في الفصل التاسع(20) إلى عدم حضور نهايات من قبيل ما تسير إليه رواية " الحكاية الأخيرة " وذاك هو نفسه ما انتهى بالكاتب/ السارد أيضا إلى التأسف لانحدار الرواية إلى نهاية صعبة(21). لذلك يمكن إدراج الرواية من الناحية الفكرية ضمن رؤية إنسانية رومانسية واقعية، التقت فيها عوالم الجمال، والحب الفاشل، والحلم، والطبيعة، والفن، والاحتفال بالقيم والمثل، مع حضور لعامل الاتفاق والصدفة : كالتقاء " شاهد" و"عماد" في الجندية، ثم التقاؤهما بعد ثلاثين سنة، وسبب سفر "شاهد"، ثم موت عابرة"، ومقتل " سحنون"... ولكن "الرومانسية" كتجربة حياتية، هي طبع إنساني أصيل، ومشترك إذا خلصناه من المسوح الإديولوجية، والسياسية التي تعمل على التدني بالتجربة والمفهوم من الإنساني، المطلق، والمتعالي إلى التاريخي، والنسبي، وأحيانا إلى السلبي، فتصير الرومانسية حينذاك كأختها الواقعية، رومانسية نقدية.

كيف تجلت قيمة الحكي في الرواية؟

من حسنات هذه " الرواية " أنها لا تنشغل بالحكي والقصة من حيث أحداثها ووقائعها فقط، وإنما تحتفل بالحكي وطقوسه وضرورته، حتى وجدنا أنفسنا إزاء مهرجان من "الحكي". فبينما حكم منطق الرواية على كثير من القيم، والحاملين لها من شخوص بالانكسار والانهزام،

ظلت قيمة "الحكي " وحدها حية، شامخة، إذ يصر "شاهد" على إتمام مشروعه، و لم يكن ذلك المشروع إلا "مشروع الحكي". وبينما ينال الدمار والانهيار، والخراب من أهل "عفراء" يظلون على عهدهم، وحلمهم منتظرين لحكيه وحكاياته، كأن " الحكاية الأخيرة " المنتظرة تعادل الحياة المفقودة، والعمران الزائل...

لقد ترك "شاهد" الجندية التي قبلها مرغما، وفر من حبه، لأنه لم يخلق لذلك. شيء ما في منطق "الحكاية" كان يهيؤه ليكون "حكواتيا"، شيء ما كان يدفع في اتجاه أن يكون "الحكي" بلسما، ودواء حين تكبر جراحات الحياة، وتطهيرا (كاترسيس أرسطو) حين تمرض نفس الإنسان، لا بد من تخلية فتحلية بلغة المتصوفة.

ينبغي أن نتذكر أن الكاتب، من حيث خلفيته الفنية، قادم من عالمين كبيرين للحكي: الرسم والمسرح. إنه واع بأن "جمالية النص" و"فاعليته" ستتحققان بالاحتفال بـــ"الحكي" موضوعا، وأسلوبا، وخطابا، إمتاعا واستنفاعا(22)، جاء في النص عن "حكي" الحكواتي أنه: "كله قيم ومعان ساميات، قلما يصادف مثلها في المتون والأسفار...وإن حكاياته لأكثر من أن تكون للتسلية والترفيه ليس إلا، إنها اختزال لتاريخ البشرية بأمجاده ومهاناته، بمعاليه ومهاويه، بملاهيه ومآسيه، بمضاحكه ومباكيه...إنها تنطوي على المفاتيح الكفيلة باختراق مغاليق الكون وألغاز الحياة، وعلى الومضات الحرية بإضاءة السبيل إلى الأبعاد المفقودة في سر وجود، ظل اختراقه عندهم من باب المحال."(23) فلعل الحديث عن دنيا هي "دنيا الحكي" والمقارنة بأساطير الأولين هو كلام ذو إيحاء خاص في سياق ما نحن بصدده.(24). الحكي إذن بلسم، الحكي بيان، الحكي سحر، الحكي ملح حياة. لذلك تحول النص إلى كشكول حكي، الكل يحكي، والكل يتلقى الحكي ويحتفل به. فتعدد الساردون، وتكسرت نمطية الحكي التقليدي أو خطيته:

-هناك الحكاية التي يحكيها لنا النص بين ميسان وعفراء (تلك التي تتبعنا خيوطها في المتن الحكائي، وقد تعدد ساردوها).

-وهناك حكاية الكاتب مع الكتابة وأجوائها في المقهى، الحكاية التي غدت له ولنا طقسا نمارسه عبر مختلف اللقاءات، و"قهوة" نتناولها معه كل الصباحات. وخلالها نعيش حواراته مع

شخصية متميزة من شخوصه، شخصية "راوية" الذي يشاكسه ويستفزه، ولكنه يرشده، ويوجهه حين تضيق به سبل الحكي، وتختلط بين يديه خيوط الحكاية.

-هناك أيضا ما يرويه "راوية " ويصبح معه الكاتب/ السارد مثلنا، مسرودا له. وهو ما سماه الكاتب "الإفادات" التي سمعها "راوية" من أسلافه، أو استقاها من مصادره (التي لا نعرفها).

-ثم هناك الحكايات السبع/ الملحمة التي يحكيها "شاهد/ الحكواتي" لأهل عفراء وغيرهم، وهي الحكايات الحاضرة الغائبة؛ لأنها على الرغم من كونها شكلت مبتدأ الرواية ومنتهاها، ومنها استمدت الرواية عنوانها، فإننا لم نعرف عنها شيئا، وإن شكلت جزءا من حياة "شاهد " الذي رأيناه يتحول من رجل الحرب والسيف، ومن عالم الحب ومواجد العشق إلى رجل "حكي" بامتياز. لا نعرف الحكايات، ولكن نعرف أنها أمست جزءا مهما من عوالم أهل عفراء، يعيشون على ذكرى ما مضى منها، و على أمل الاستمتاع بما يأتي، وينبغي أن يأتي...لقد قال الحكواتي :" سأمتع أهلها، خلال كل مرة، بأحداث حكاية من حكاياتي السبع.. لقد جعلتهم على رأس الأهالي الذين سيكتشفون مضامينها قبل غيرهم"(25). كما "اعتاد أهل البلدة منه ذلك، فأمسوا يضربون لاستقباله موعدا، وكأنهم بصدد ترقب هلال يعلن بطلوعه يوم عيد أو موسم احتفال..."(26). إنه فعل الحكي وسحره، وفعل "حكواتي" تـــعـــاطاه بجنون، و"مجذبة "(27). حتى ليخيل إليك أنه بذلك في قصص تنويم سحري يفعل فيها بجماعته ما يشاء، يفرحها متى يشاء، ويحزنها متى يشاء(28).

بعد هذا، لنا أن نتساءل عن كيف ينشدّ القوم كل يوم لسماع فصل؟ وسبعة أيام لسماع سبعة فصول؟ لسماع حكاية واحدة؟ وسنة كاملة يعيشون على ذكراها، وأمل سماع أخراها؟ وسبع سنوات لسماع سبع حكايات؟

كأننا بهذه الرواية ترد الاعتبار للحكي، ولحلقة الحكي، لـــ"الأكورا"، كأننا بها تمجد الحكي. تجعله شرط الوجود، ترقى به من مستوى الكمال في الفن إلى مستوى الضرورة الوجودية. لذلك نحس بأن كثيرا من حكايات الإنسانية السابقة كامنة في لا وعي النص، كامنة في لا وعي الكاتب، مما يجعل رواية " الحكاية الأخيرة" تتناص معها، ولو من وراء حجاب :

-نجد السفر، وسبع حكايات، فيسير بنا الحكي على آثار أقدام " السندباد "...

-يلتقي الكاتب كل صباح مع "راوية" ليستأنف حكايته، فيروي له بعضا منها، فيستدعي ذاك إلى شعورنا، أو لاشعورنا صورة " شهرزاد " وهي تستأنف كل ليلة حكيها، وتسكت صباحا، من أجل الحياة، من أجل البقاء، من أجل أن يفعـــل الحكي فعله في نفس " شهريار ".

-يخرج " فيصل " العادل من " ميسان " الظالم حكامها ليؤسس دولة " عفراء " الفاضلة، فنفكر في " إبراهيم الخليل " وهو يترك العراق إلى الشام والحجاز، ونفكر في "النبي محمد"عليه السلام، وهو يترك مكة إلى المدينة المنورة، أو في " عبد الرحمن الداخل " صقر قريش، وهو يترك الشام إلى الأندلس...

-يخرج "القاضي فيصل" ليؤسس دولـــة الـــنظام والعدل، فيبعث أعداؤه من يسممه، فتحضرنا تجربة " إدريس الأول "...

جمالية السرد في " الحكاية الأخيرة "

والآن يمكن أن ننظر إلى الحكي فيها من حيث هي خطاب، وأسلوب، ولغة، وبناء فني جمالي. فكيف تحققت أدبية النص؟ وكيف انبنت جماليته؟

سبق وأن ألمعنا إلى أن من حسنات هذه الرواية أنها لا تنشغل بالمحكي فقط والقصة من حيث أحداثها ووقائعها فقط، ولعل من مظاهر ذلك ومما يدل على هاجس التجريب فيها، أوفي ذهن كاتبها ومشروعه، أن " سؤال الكتابة و الإبداع " يفرض نفسه في أكثر من مناسبة، وأكثر من مقام. سؤال الكتابة من حيث طبيعتها، ووظائفها، وصعوباتها ومضايقها...هو سؤال ما ينفك يطل علينا من وعي النص أولا وعيه.

" الكتابة رحلة في حلم...إبحار خارج أسوار المكان والزمان"(29)، عبارة تشير إلى عدم استناد الكتابة إلى واقع حقيقي محدد، وإلى تخففها من قيود مرجعية معينة. إنها من "نسج الخيال"(30)، وفعل " الإلهام"(31)، إن الكاتب يبرم من خلال ذلك ميثاقا للقراءة بينه وبين المتلقين، أي أنني أكتب عملا تخييليا، وينبغي تلقيه على تلك الصفة.

هوامش

1-" الحكاية الأخيرة "، عبد الحفيظ مديوني، منشورات ديـــهـــيـــا، مطبعة تريفة، الطبعة الأولى، 2015، بركان، المغرب.

2-الحكاية الأخيرة 61-63-.64

3–نفسه– 63-64 -

4–نفسه–181.

5– نفسه –70 71-79-83- .

6–نفسه – 100-101- و116–118.

7–نفسه– 151و181.

8–نفسه– 133،154.

9–نفسه –190–195.

10–" مسرحية الورشة " عبد الحفيظ مديوني، مطبعة تريفة، الطبعة الأولى، 2007، بركان، المغرب.

11–" الورشة " الصفحة 7(تقديم الدكتور مصطفى رمضاني).

12–نفسه – 9.

13–نفسه – 12.

14–مسرحية " رحلة سند و باد "، عبد الحفيظ مديوني، منشورات ديهيا، مطبعة تريفة، الطبعة الأولى، 2012، بركان، المغرب.

15–نفسه–7(تقديم الدكتور مصطفى رمضاني).

16–يمكن رصد أكثر من نقطة للتقاطع بين المنجز المسرحي للكاتب وخاصة في " رحلة سند وباد "، وهذا العمل الروائي، ففضلا عن الرؤية النقدية للواقع، هناك توظيف للراوي، وتقنية التمسرح، و رحلة السندباد المنشطر...، مقابل توظيف راوية، والاحتفال بالكتابة الروائية من داخل الرواية، ثم حكايات الحكواتي السبع/ رحلاته...

17–الحكاية الأخيرة– 1960–191،197.

18–نفسه– 167–168.

19–نفسه– 186.

20–نفسه– 186.

21–نفسه– 195.

22–نفسه– 16.

23–نفسه –24.

24–نفسه 22.

25–نفسه 183.

26–نفسه 16.

27–نفسه 23.

28–نفسه 23.

29–نفسه 5.

30–نفسه 6.

31–نفسه 7و53.